مجلة جامعة دمشق للعلوم القانونية
المجلد 5 (4) – 2025: 171–196

Damascus University Journal of Legal Sciences
Vol 5 (4) -2025: 171- 196

أصل الإنسان في التفاسير الحديثة للقرآن الكريم دراسة نقدية

أحمد برهان*[1]، عبد العزيز حاجي[2]، مروان الحلبي[3]

[1]*طالب دكتوراه في قسم علوم القرآن والحديث في كلية الشريعة بجامعة دمشق، وأستاذ في قسم تقويم الأسنان والفكين في كلية طب الأسنان بجامعة دمشق.
Prof.ahmadburhan@damascusuniversity.edu.sy

[2] أستاذ في قسم علوم القرآن والحديث في كلية الشريعة بجامعة دمشق.
abd58.hajji@damascusuniversity.edu.sy

[3] أستاذ في قسم النسج والتشريح والجنين في كلية الطب بجامعة دمشق.
profalhalabi@damascusuniversity.edu.sy

الملخص:

أولى القرآن الكريم قضية خلق الإنسان أهمية كبيرة؛ حيث ورد فيه العديد من الآيات التي تتحدث عن أصل الإنسان وكيفية بدء خلق البشر. وأدى ظهور بعض النظريات العلمية الجديدة، ولاسيما نظرية التطور، واطلاع بعض المفسرين المعاصرين عليها إلى ظهور أقوال جديدة في تفسير تلك الآيات. ويهدف البحث إلى إجراء دراسة نقدية للأقوال التي قيلت في تفسير الآيات التي تتحدث عن أصل الإنسان في العصر الحديث. تم جمع الأقوال المختلفة في معاني الآيات وتحديد الأدلة العلمية واللغوية لكل منها، ثم إجراء تقييم لتلك الأقوال وأدلتها وتحديد المقبول منها والمردود على ضوء قواعد التفسير ونتائج بحوث العلم التجريبي. وقد أمكن التوصل إلى أن الراجح في أصل الإنسان كما تشير إليه الآيات القرآنية هو أن البداية كانت بخلق آدم خلقًا مكرمًا، ثم خُلِقت حواء ابتداءً من آدم ومن جنسه، وكان في خلق آدم وتصويره تكريم له ولكل ذريته من البشر، كما كان في خلقه وتصويره خلق وتصوير لذريته معه حقيقة لا مجازًا، تلك الذرية التي ما زالت تتناسل منذ خلق آدم حتى يومنا هذا وحتى قيام الساعة.

الكلمات المفتاحية: أصل الإنسان، النفس الواحدة، الذرية، الداروينية، نظرية التطور.

تاريخ الايداع: 2023/1/7
تاريخ القبول: 2023/6/4

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب **CC BY-NC-SA**

ISSN: 2789-7621 (online)
https://journal.damascusuniversity.edu.sy

The origin of the human being in the contemporary interpretations of the holy Qur'an: A critical study

Ahmad S Burhan[1], Abdulaziz Hajji[2], Marwan Alhalabi[3]

[1] PhD student, Department of Sciences of the Qur'an and Hadith, Faculty of Sharia, Damascus University, and Professor of Orthodontics, Faculty of Dentistry, Damascus University.
Prof.ahmadburhan@damascusuniversity.edu.sy

[2] Professor, Department of Sciences of the Qur'an and Hadith, Faculty of Sharia, Damascus University.
abd58.hajji@damascusuniversity.edu.sy

[3]Professor, Department of histology, anatomy and Embryology, Faculty of Medicine, Damascus University.
profalhalabi@damascusuniversity.edu.sy

Abstract:

The Holy Qur'an paid great interest to the issue of human creation. It contained many verses that talk about the origin of man and how the creation of humans began. The emergence of some new scientific theories, especially the evolution theory, and the looking of some interpreters at it, led to the emergence of new sayings in the interpretation of those verses. The research aims to conduct a critical study of the sayings that were said in the interpretation of the verses that talk about the origin of man in the modern era. The various interpretations of the verses were collected, and the scientific and linguistic pieces of evidence for each of them were determined. Then, evaluation of those sayings and their pieces of evidence were carried out to distinguish the acceptable or refused ones in light of both the rules of interpretation and the results of experimental scientific research. It has been possible to conclude that the most correct interpretation for the origin of mankind as indicated by the Qur'anic verses is that the beginning was with the creation of Adam in an honorable manner, then Eve was created from Adam and of his same kind. The creation of Adam and his imagery were honoring for him and all his offspring. Moreover, his creation and imagery were real creation and real imagery of his offspring, not mere metaphors. Since then, this offspring began to procreate until this day and will continue until the Hour of Judgment.

Key words: Human Origin, The One Soul, The Offspring, Darwinism, Theory of Evolution.

Received: 7/1/2023
Accepted: 4/6/2023

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a CC **BY- NC-SA**

المقدمة:

لم تشهد مسألة من المسائل أو قضية من القضايا خلافًا وتنوعًا في الأقوال والآراء التفسيرية كما شهدته قضية أصل الإنسان، ولعل من أبرز أسباب هذا الخلاف هو ظهور النظريات العلمية التي غيَّرت المفهوم السائد لأصل البشر؛ حيث أدى اطلاع بعض المفسرين المعاصرين على النظريات العلمية المتعلقة بأصل الإنسان إلى استحداث أقوال تفسيرية جديدة أصبحت موضع جدل.

مشكلة البحث وأهميته: أشار القرآن الكريم إلى خلق الناس من نفس واحدة، وإلى خلق زوج لتلك النفس، ونبَّه إلى أن في خلق تلك النفس خلقًا لذرِّيَّتها، وأن كل جيل من تلك الذرِّيَّة هو ذرِّيَّة لجيل سابق، وللمفسرين في معاني الآيات الواردة حول موضوع أصل البشرية أقوال متباينة. وتأتي أهمية البحث من كونه يعرض القصة الكاملة لأصل الإنسان من خلق آدم إلى خلق زوجه وذريته، كما يجيب عن العديد من الأسئلة حول نظرية التطور وأدلتها ويظهر الموقف منها بطريقة جديدة ترتكز على تقييم الأقوال التفسيرية في ضوء كل من قواعد تفسير النصوص وما وصلت إليه العلوم التجريبية.

الهدف من البحث: يهدف هذا البحث إلى محاولة فهم أصل البشر كما يشير إليه القرآن الكريم من خلال تحديد الأقوال التفسيرية الأرجح في كيفية خلق آدم وخلق حواء وخلق الذرية، في ضوء قواعد تفسير النصوص وما توصل إليه العلم التجريبي.

منهج البحث: البحث عبارة عن دراسة نقدية، تشمل استقراء الآيات الكريمات التي تتحدث عن خلق آدم وخلق زوجه وخلق ذريته، وجمع أقوال المفسرين المعاصرين فيها وتصنيف تلك الأقوال، إضافة لاستقراء نتائج أحدث البحوث التجريبية في أهم المراجع العلمية المعتمدة ذات الصلة، وإخضاع الأقوال التفسيرية لتقييم نقدي استناداً إلى درجة توافقها مع كل من قواعد تفسير النصوص وما استقرت عليه نتائج البحوث التجريبية. تحفل التفاسير بأقوال عديدة حول تفسير الآيات التي تتحدث عن أصل الإنسان وابتداء خلقه سيتم عرضها ومناقشتها في سياق هذا البحث، كما توجد العديد من المحاولات التفسيرية لغير أصحاب التفاسير، قليل منها أبحاث علمية منشورة في مجلات محكمة، ومعظمها إما مباحث وردت في كتب غير محكمة مطبوعة، أو مقالات غير محكمة منشورة في بعض المنتديات، أو مقاطع فيديو على الشبكة، وقد أتى معظم أصحابها بنتائج سُبِقوا إليها من أصحاب التفاسير، ونظرًا لوجود عدد كبير من هذا النوع من المحاولات البحثية غير المحكمة سوف يُكتَفى في سياق البحث بمناقشة ما أتى منها بأقوال تفسيرية جديدة غير موجودة في كتب التفسير.

المطلب الأول: خلق البشر من نفس واحدة:

ورد تأكيد القرآن الكريم على خَلْق وجَعْل وإنشاء الإنسان من نفس واحدة في آيات عديدة هي: **قوله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: 1]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأنعام: 98]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: 189]، وقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: 6]، وسأستعرض فيما يأتي أقوال المفسرين في معنى النفس الواحدة كما وردت في تفسير آية سورة النساء لأن الأقوال التفسيرية الواردة فيها شاملة للأقوال الواردة في المواضع الأخرى:

القول الأول: النفس الواحدة هي نفس آدم عليه السلام؛ أي: فرَّعكم من أصل واحد وهو نفس أبيكم آدم[1]، ومن المفسرين من ذكر هذا القول ونسبه للجمهور، ثم قال: "وهم لم يأخذوا هذا من نص الآية، بل أخذوه تسليمًا؛ وهو أن آدم هو أبو البشر"[2].

المناقشة: ذهب جمهور المفسرين إلى أن النفس الواحدة التي خُلِقنا منها هي نفس آدم عليه السلام، إلا أن الآية الكريمة تدل على أن كل البشر خُلِقوا من نفس واحدة دون أن تصرِّح بهويتها في هذا الموضع، ولعل هذا يكون مراعاة لمقام[3] بيان الأصل الواحد للبشر؛ فليس الغرض من الآيات الكريمة هنا بيان هوية الإنسان الأول الذي نشأ منه كل البشر، بل بيان فضل الله تعالى في خلق الناس جميعًا من أصل واحد، وحضهم على التقوى في تعاملهم مع بعضهم البعض؛ إذ تؤكد الآية الكريمة أُخوَّتهم، وتذكرهم بأصلهم الواحد، وهو أدعى لأن يتقوا الله في بعضهم بعضًا. ولئن لم تشر الآية الكريمة هنا إلى آدم عليه السلام كأصل واحد للبشرية فإن المفسرين أخذوا هذا من آيات كريمة أخرى عديدة؛ منها آيات بدء خلق الإنسان في سورة البقرة[4]، لا تسليمًا كما أشار بعض المفسرين.

القول الثاني: يرى أصحابه أن الخطاب في القرآن الكريم مُوَجَّه لأبناء قريش الذين كانوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وهم آل قصي، وبالتالي يكون المراد بالنفس الواحدة قصي[5]. وقريب من هذا القول قول من يرى أن المقصود بالنفس الواحدة يتغير بحسب المخاطبين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾؛ فإن كان الخطاب لأهل مكة، أو قريش، جاز أن يُفهَم منه أن النفس الواحدة هي قريش أو عدنان، وإذا كان الخطاب للعرب عامة جاز أن يُفهَم منه أن المراد بالنفس الواحدة يعرب أو قحطان، وإذا كان الخطاب لجميع الأمم فكل أمة تفهم منه ما تعتقده[6].المناقشة: حاصل استدلال أصحاب هذا القول عدم القول بعموم لفظ (الناس) المذكور في الآية، وهو على ما يبدو من العام المطلق، وهذا النوع دلالته على العموم ظنية فيما ذهب إليه الجمهور[7]، فضلًا عن أنه قد يحاجج بعضهم في كونه من العام الذي أريد به الخصوص، بقرينة قوله تعالى بعدها: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ فهو خطاب يستخدمه العرب الذين اعتادوا أن يسألوا بعضهم بعضًا بقرابة الرحم فيقول قائلهم: (أسألك بالله وبالرحم). ويجاب عن استدلالهم بأن الامتنان بالخلق والأمر بالتقوى ينطبق على كل البشر، فيكون قرينة لكون (الناس) من العام الذي أريد به العموم

---

1 انظر: القاسمي، محاسن التأويل، 3/ 5؛ جوهري، الجواهر، 3/ 5؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 4/ 215.

2 انظر: المراغي، تفسير المراغي، 4/ 175.

3 مراعاة المقام: أن يُنظَم الكلامُ على خصوصيَّات بلاغيَّة تناسب مقامات الكلام المتفاوتة، كالترغيب والترهيب، والجد والهزل، وغيرها. انظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ص 168.

4 هي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۞ وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۞ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 30– 37].

5 ذكره المراغي، ونسبه إلى محمد بن علي الشاشي المعروف بالقفال الكبير (ت 365 هـ). انظر: المراغي، تفسير المراغي، 4/ 175.

6 انظر: رضا، تفسير المنار، 4/ 265.

7 للعموم ثلاثة أنواع؛ عام أريد به العموم قطعًا وهو ما صاحبته قرينة تنفي احتمال تخصيصه، وعام أريد به الخصوص قطعًا وهو ما صاحبته قرينة تنفي أن يكون العام مرادًا، وعام مطلق وهو ما لم تصحبه قرينة تنفي احتمال تخصيصه ولا قرينة تنفي دلالته على العموم، وهذا النوع الأخير دلالته ظنية فيما ذهب إليه الجمهور. انظر: صالح، تفسير النصوص في الفقه الإسلامي، 2/ 102.

قطعًا، إضافة إلى أن النداء في القرآن الكريم بـ (يا أيها الناس) ورد في عشرين آية، وباستقراء تلك الآيات يلاحظ أن الخطاب هو خطاب عام من ناحية المخاطَب ومن ناحية موضوع الخطاب، ومنه آية النساء هذه، كما أن الخطاب في القرآن الكريم عمومًا يكون للناس كافة، وبالتالي يمكن القول: إن آل قصي أو أهل مكة أو غيرهم يدخلون في الآية دخولاً أوّليّاً، ويُقصدون قبل غيرهم، وهذا لا ينفي كون لفظ (الناس) عامّاً.

القول الثالث:

يدل لفظ النفس على الماهية أو الحقيقة التي كان عليها الإنسان ككائن ممتاز على غيره من الكائنات؛ أي المعنى: خلقكم من جنس واحد وحقيقة واحدة، ولا ضير أن تكون هذه الحقيقة بُدِئت بآدم، أو بُدِئت بغيره، أو بُدِئت بعدَّة آباء انبثَّ منهم سلائل كل منهم كما عليه بعض الباحثين. كما أنه لا ضير أن يكون هذا الأصل أو هذه الأصول قد ارتقت عن بعض الحيوانات، أو خُلِقت خلقًا مستقلًّا على ما عليه الخلاف بين الناس في هذا العصر[8]. يأبى ظاهر هذه الآية أن يكون المراد بالنفس آدم، لمعارضته المباحث العلمية والتاريخية التي تقول بوجود أكثر من أب للبشر، ولقوله: ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾، ولم يقل: (النساء والرجال)[9]، وما جاء من مخاطبة الناس بقوله: ﴿يَابَنِي آدَمَ﴾ لا يُعَدُّ نصًّا في كون جميع البشر من أبنائه إذ يكفي في صحة هذا الخطاب أن يكون من وُجِّه إليهم في زمن التنزيل من أولاد آدم[10].

المناقشة: يمكن تقسيم الأدلة التي استدل بها أصحاب هذا القول إلى قسمين رئيسين: أدلة لغوية، وأدلة علمية؛ أما الأدلة اللغوية فأولها: أن الله تعالى قال: ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: 1]، ولم يقل: الرجال والنساء، ويمكن أن يجاب عنه بأنه لم يقل: (وبثَّ منهما الرجال والنساء) لأن ذلك يوجب كون جميع الرجال والنساء مبثوثين عنهما مباشرة، وذلك محال، فعَدَلَ إلى قوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[11]، فليس في هذا دليل على وجود أنفس أخرى نشأ منها بشر آخرون. وثانيها: أن خطاب ﴿يَابَنِي آدَمَ﴾ لا يُعَدُّ نصًّا في كون جميع البشر من أبنائه إذ يكفي في صحة هذا الخطاب أن يكون من وُجِّه إليهم في زمن التنزيل من أولاد آدم. وهذا الدليل مردود باستقراء الآيات التي جاء فيها هذا الخطاب؛ حيث يلاحظ أن الخطاب موجه لجميع البشر لا لقسم منهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: 172] فهل أشهد الله ذرِّيَّة بني آدم وترك سواهم من بقية البشر! وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70]، فهل كرم بني آدم وترك بقية البشر دون تكريم! وفي قوله تعالى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: 60]، فهل اقتصر العهد في عدم عبادة الشيطان على بني آدم وسمح بذلك لبقية البشر! وغيرها الكثير من البيان الشريف الواضح. وأما الأدلة العلمية التي استدلوا بها فهي قولهم: إن كون المراد بالنفس الواحدة آدم يعارض المباحث العلمية والتاريخية التي تقول بوجود أكثر من أب للبشر. ويُفصِح هذا القول عن تأثر أصحابه الواضح بنظرية التطور. ولفهم هذا الاستدلال لا بد من إلقاء بعض الضوء على هذه النظرية وما تقول به.

8 انظر: رضا، تفسير المنار، 4/ 265.

9 انظر: رضا، تفسير المنار، 4/ 267؛ المراغي، تفسير المراغي، 4/ 175.

10 نُقِل هذا القول عن الأستاذ محمد عبده. انظر: المراغي، تفسير المراغي، 4/ 175.

11 انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 9/ 478.

الداروينية Darwinism أو نظرية التطور Theory of Evolution: نظرية تشرح تنوع الكائنات الحية وظهور أنواع جديدة منها عن طريق التطور البيولوجي[12] والانتقاء الطبيعي والبقاء للأصلح[13]، طورها كل من Charles Darwin و Alfred Russel Wallace في القرن التاسع عشر والتي أصَّلها داروين في كتابه (أصل الأنواع On the Origin of Species) عام 1859م. تنصُّ النظرية على أنَّ جميع أنواع الكائنات الحية نشأت من أصل مشترك كان في البداية خلية حية واحدة نشأت بالصدفة[14] في ظروف مناسبة، ثم تطورت تلك الخلية عبر ملايين السنين تطورًا تدريجيًا بطيئًا عبر عملية الانتقاء الطبيعي ما أدى لظهور الأنواع الجديدة[15]. خضعت هذه النظرية منذ أن طرحت لتطوير وتعديل مستمرَين، ولعل التطوير الأبرز فيها هو ظهور ما يسمى **بالداروينية الحديثة Neo Darwinism**، وهي تفسير معدَّل لنظرية داروين يجمع بين الانتقاء الطبيعي وعلم الوراثة المندلية[16]، إضافة للعديد من التفسيرات التي وضعها علماء الأحياء والوراثة السكانية[17] وغيرهم منذ أوائل القرن العشرين إلى اليوم. تعزو النظرية الداروينية الحديثة القوة الرئيسة الدافعة لظهور الأنواع الجديدة إلى جمع الاختلافات الجينية المفضَّلة عبر الأجيال (الطفرات العشوائية[18]) عبر الانتقاء الطبيعي للجينات[19] الأكثر ملاءمة ما يؤدي إلى نشوء أنواع جديدة[20]. تلقت هذه النظرية تقبلًا واسعًا في المجتمع العلمي نظرًا لما تمتلكه من حجج أهمها السجل الأحفوري، والتشابهات الكيميائية والتشريحية بين الكائنات الحية المتقاربة، والتغيرات الجينية المثبتة في الكائنات، والتوزع الجغرافي للأنواع المتقاربة، وغيرها[21]، وبالمقابل، هناك الكثير من العلماء ممن ردوا هذه النظرية ودحضوا الكثير من حججها[22].

وأرى هنا أن من المفيد بيان الموقف الذي أراه صائبًا من هذه النظرية بعد أن أصبح ذكرها مألوفًا في التفاسير:

تقوم النظرية على أساسين رئيسين؛ أولهما: الأصل المشترك للكائنات الحية، وثانيهما: أن ظهور الأنواع الجديدة يكون من خلال تغيرات عشوائية على رأسها الطفرات الجينية العشوائية ومن خلال الانتقاء الطبيعي. والحقيقة أن النصوص الشرعية

12 التطور البيولوجي: هو التغيير الجيني الذي يحدث لمجموعة سكانية خلال الانتقال من جيل إلى آخر. وتكون سرعة واتجاه هذا التغيير متغايرة في الأنواع المتباينة وفي الأوقات المختلفة، يمكن أن يؤدي التطور المستمر عبر العديد من الأجيال إلى تطوير أصناف وأنواع جديدة، كما يمكن أن يؤدي الفشل في تطوير استجابات للتغيرات البيئية إلى الانقراض. انظر: O'Neil، 2014.

13 تقوم فكرة الانتقاء الطبيعي على أن البقاء يكون للأفراد القادرين على التكيف مع الظروف المحيطة حتى يصلوا إلى مرحلة النضج والتكاثر ونقل سماتهم إلى الجيل التالي، بينما ينقرض الأفراد الأقل قدرة على التكيف، تتجمع الأنماط الظاهرية الأصلح داخل الأفراد مع مرور الوقت حيث يتسبب الانتقاء الطبيعي في نشوء أنواع جديدة. انظر: السابق.

14 لم يعتقد داروين أن التطور يتبع اتجاهًا محددًا مسبقًا أو أن له هدفًا حتميًا، وإنما يحدث نتيجة الانتقاء الطبيعي؛ يعني أن الصدفة تلعب دورًا رئيسًا في تحديد نتيجته. لقد اعتقد أن الحظ هو من سيقرر ما إذا كان لدى أي فرد أو مجموعة من السكان اختلافات تسمح لها بالبقاء والتكاثر، وفي حالة عدم وجود مثل هذه الاختلافات سوف تنقرض بسرعة لأنها لا تستطيع التكيف مع البيئة المتغيرة. انظر: السابق.

15 انظر: السابق.

16 نسبة إلى مندل Gregor Mendel، راهب من القرن التاسع عشر. أجرى تجارب عدَّة على ما يقارب 5000 نبتةٍ من نباتات البازلاء التي زرعها في حديقة الدير بين عامي 1856 و 1863 وتوصَّل إلى ما يعرف اليوم باسم مبادئ مندل للوراثة أو الوراثة المندلية. انظر: Gliboff، 1999، ص217.

17 هو علم يجمع بين علم الأحياء التطوري وعلم الوراثة، متخصص في دراسة التباين الجيني داخل المجموعات السكانية وفيما بينها، ويدرس العديد من الظواهر مثل: التكيف وظهور الأنواع الجديدة والبنية السكانية. انظر: Ewens، 1990، ص177.

18 الطفرات: هي تعديلات تحدث على المادة الوراثية، وغالبًا ما تحدث أثناء نسخ الحمض النووي خلال انقسام الخلايا. انظر: O'Neil، 2014.

19 الجينات: الوحدات الأساسية للوراثة في الكائنات الحية، تتضمن المعلومات المهمة التي يتم عبر فك تشفيرها تكوين أعضاء الجنين والوظائف العضوية الحيويّة له. انظر: السابق.

20 انظر: السابق.

21 انظر: السابق.

22 Gauger وزملاؤه، 2012، ص15؛ قنيبي، سلسلة رحلة اليقين، 2022a.

والآيات القرآنية التي تُفصِّل في مراحل خلق الإنسان ومادة خلقه ثم تسويته وتصويره ثم أمر الملائكة بالسجود لا تؤيِّد هذا المعنى ولا تعارضه، مع التأكيد على خصوصية خلق الإنسان وتكريمه.

تأتي المشكلة مع هذه النظرية في أنها تؤكد على عشوائية الطفرات؛ وعماية الانتقاء الطبيعي. يصرُّ التطوريون على هذا الجزء من النظرية لأن الطفرات إن لم تكن عشوائية فهذا يعني أن هناك من يوجهها، ومن قَصَد أن تحدث لتظهر الكائنات الحية بأنواعها، وهذا يعني أن هناك من خلق تلك الكائنات، وهذا ما ترفضه نظرية التطور؛ حيث تصر على أن الكائنات جاءت بأسباب مادية بحتة، وتعتبر الحديث عن خالق دينًا وليس علمًا، حتى أصبحت كلمة (التطور) مقارنة لكلمة (لا خلق)[23]، ولربما يؤدي إدراج بعض المفسرين ما يمكن قبوله من هذه النظرية في تفاسيرهم دون الجزء المرفوض منها والرد عليه إلى إيقاع القارئ بالوهم بصحتها كاملة.

ولكن: هل استطاع العلم أن يؤكد عشوائية الطفرات؟

تشكل عشوائية الطفرات الدعامة الأهم التي تقوم عليها نظرية التطور، والتي تحدث عنها أنصار النظرية لعقود طويلة. تأتي الأبحاث العلمية الحديثة الرصينة لتؤكد على أن الطفرات التي تحدث اليوم ليست عشوائية، وقياسًا عليها فإن الطفرات التي حدثت في قديم الزمان ونتجت عنها الكائنات المختلفة –حسب نفس النظرية– ليست عشوائية؛ فهي تحدث بشكل رئيس في المناطق غير الجينية من الصبغيات[24]، بينما تكون المناطق الجينية الرئيسة المسؤولة عن تصنيع البروتينات في الجسم محمية إلى درجة كبيرة نسبيًا من حدوث الطفرات[25]. إن هذه النتائج تنفي العشوائية والصدفية التي تقوم عليها النظرية، وتؤكد وجود التوجيه والقصد والإرادة؛ أي: وجود الخالق.

والسؤال الأهم في سياق مناقشة هذا القول: هل حقًا استطاع العلم أن ينفي نسبة البشر إلى أبوين اثنين، ويثبت نسبهم إلى أكثر من أبوين؟

اعتمادًا على علم الوراثة السكانية، جادل بعض العلماء بأن هناك قدرًا كبيرًا من التنوع الجيني لدى البشر اليوم لا يمكن أن يكون قد انتقل إليهم من خلال شخصين فقط (أي: لا صحة لوجود أبوين فقط للبشرية هما آدم وحواء). تأتي حجج علم الوراثة السكانية ضد وجود آدم وحواء في أشكال عديدة، لا يخلو أي منها من اعتراضات وحجج مقابلة. ولتوضيح المكان الذي وصلت إليه أدلة العلم حول هذه القضية أرى أن من المفيد عرض إحدى الحجج لبيان حقيقة تلك الاعتراضات. واحدة من أقوى الحجج ضد وجود أبوين وحيدين للبشرية تلك التي تقوم على التباين الجيني في جينات مستضدات الكريات البيض البشرية human leukocyte antigen (HLA)، وهي من الجينات الأكثر تنوعًا في الجينوم البشري. يمكن تلخيص هذه الحجة بأن هناك الكثير من الأليلات[26] المعروفة حاليًا لكل جين HLA، والسؤال المطروح: كيف يمكن عزو هذا التنوع الكبير لهذه الأليلات إلى شخصين فقط مع العلم أنه يمكن لشخصين نقل أربعة أنواع من الأليلات على الأكثر؟ وهنا تنتصر للوهلة الأولى فكرة تعدد الأصول التي تقول بها نظرية التطور على فكرة وحدة الأصل البشري التي تقول بها الشرائع

23 انظر: قنيبي، الأبحاث العلمية وأغبياء بني آدم، 2022b.

24 الصبغيات: هي عبارة عن بنى تقع في نواة الخلية، تحتوي على المعلومات الوراثية التي تحدد الميراث الحيوي للفرد. اكتشفت في العام 1882م، ويأتي اسمها من كونها تصبح مرئية عندما تصبغ بملونات اصطناعية. انظر: O'Neil، 2014.

25 Monroe وزملاؤه، 2022، ص101.

26 الأليل Allele: هو نسخة أو شكل بديل للجين، ولكل جين نسختان أو شكلان بديلان على الأقل. انظر: O'Neil، 2014.

السماوية. ولكن الموضوع لم ينته هنا، فقد استطاعت الدراسات العلمية تحديد السبب وراء هذا التنوع، إن وظيفة هذه المستضدات هي التعرف على العديد من الببتيدات الأجنبية المختلفة وربطها وهو أمر مرغوب لأنه يشير إلى وجود مناعة قوية. وكلما ظهر طفيلي جديد أو ميكروب مسبب للمرض تزداد فرص حصول بعض الأفراد على أليل جديد قادر على ربط البروتينات المتكسرة للغزاة وتحفيز الجهاز المناعي ليقوم بالدفاع ضدهم. وبالتالي فإن التنوع في هذه المستضدات يأتي نتيجة لقابلية التغير الكبيرة والتطفر وإعادة التركيب الجيني في أماكن محددة منها من أجل توليد أنواع كثيرة من HLA بسرعة. والشيء المثير للاهتمام أن كل الاختلاف الجيني في هذه المستضدات، وبالتالي التباين في الببتيدات التي يمكن ربطها، يأتي تحديدًا من جزء واحد فقط من الجين، أما بقية الجين فلا يختلف كثيرًا[27]. إن وجود مثل هذه العملية يهدم بشكل أساسي هذه الحجة لعلم الوراثة السكانية حول حجم الأسلاف، وبذلك لم تسلم الحجة الأقوى في مواجهة الأصل الواحد للبشر، ولم يتم دحض وجود آدم وحواء من قبل العلم، ومن يدعي خلاف ذلك فهو يحرف الأدلة العلمية[28].

توضح قصة HLA التي أوردْتها نقاط القوة والضعف التي تتحكم بالعلم التجريبي، فالادعاءات العلمية مؤقتة غالبًا، وتخضع دائمًا للمراجعة، وبخاصة ما كان منها يغوص في الماضي السحيق، فيجب التعامل مع كل ما يتعلق به بحذر شديد بسبب العدد الكبير من المتغيرات غير المعروفة والتي لا يمكن ضبطها، والعوامل المربكة Confounders[29] التي لا يمكن استبعادها. وبالتالي لا يمكن الاعتماد عليه في الوصول إلى حقائق وعقائد راسخة فيما يتعلق بالتاريخ الجيني القديم، وبناء عليه فليس مطلوبًا من المفسر أن يوفق بين تلك النتائج وبين النصوص الشرعية؛ فالأولى ظنية والأخرى ظنية أو قطعية الدلالة، فلا تعارض بينها أصلًا.

القول الرابع:

المراد بالنفس الواحدة حواء؛ ولذلك أنَّثها حيث وردت، وذكَّر زوجها الذي خُلِق منها، وهذا أوضح في آية الأعراف في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ [الأعراف: 189]؛ حيث قال: ليسكن إليها، وقال: (فلما تغشاها)، فالزوج هنا واضح أنّه الذكر، وآية الأعراف هي آية النساء ذاتها ليس هناك فرق بينهما، فقطعًا النفس الواحدة في الأول هي المؤنث وهي حواء، والزوج المذكر هو آدم[30].

المناقشة: يخالف هذا القول ما أكَّده القرآن الكريم في مواضع عديدة من كون الأصل الأول للبشر هو آدم وليس حواء، لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: 71، 72]، فالآية الكريمة تؤكد أن الله أمر الملائكة بالسجود للبشر الأول المخلوق من طين، ويشير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: 34] إلى أن ذلك البشر هو آدم عليه السلام؛ فالآية الكريمة تشير إلى أن سجود الملائكة كان لآدم وليس لحواء.

27 انظر: Doxiadis وزملاؤه، 2010، ص137.

28 انظر: Gauger وزملاؤه، 2012، ص117.

29 العامل المربك: مصطلح إحصائي يشير إلى متغير خارجي أو كامن يؤثر على كل من المتغير التابع والمتغير المستقل، مما يتسبب في توهم وجود علاقة ارتباط، دون وجود أي ارتباط حقيقي بين السبب والنتيجة. انظر: Greenland وزملاؤه، 1999، ص29.

30 انظر: رضا، تفسير المنار، 4/ 271؛ إبراهيم، حواء: هل خلقت من ضلع آدم؟، 2012.

وأما قولهم: المراد بالنفس الواحدة الأنثى ولذلك أنَّثها، وذكر زوجها الذي خلق منها، فمردود لأن وصْفَ النفس بالواحدة لتأنيث النفس[31]؛ فالنفس حيثما وردت في القرآن الكريم وردت مؤنثة باستمرار، سواء أكان ماصدقها مؤنثًا أم مذكرًا كما في قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ [آل عمران: 25] وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ [إبراهيم: 51]، وغيرها. وأما الزوج فهو حواء كما في قوله: ﴿وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، وكذلك قوله: ﴿وَيَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: 19]، وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ۞ فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: 116، 117]، وأصل لفظ الزوج أن يُطلَق على مجموع الفردين، فإطلاق الزوج على كل واحد من الرجل والمرأة المتعاقدين تسامح عرفي، وهو من الوصف بالجامد ولذلك استوى فيه الرجل والمرأة، فلا يقال للمرأة (زوجة)، وعدَّه بعض أهل اللغة لحنًا[32]. وأما تذكير وتأنيث الضمائر في آية الأعراف فقد تم توجيهه بأن تذكير الضمير المرفوع في فعلي: (يسكن) و(تغشَّى): جاء باعتبار كون من يعود عليه –وهو النفس الواحدة– ذكرًا، ليبين أن المراد بالنفس الواحدة آدم، ولأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشَّاها، وأتى تأنيث الضمير المنصوب في (تغشاها)، والمرفوع في (حملت) و(مرت) باعتبار من يعود عليه –وهو زوجها– أنثى[33].

القول الخامس:

من الممكن أن يكون آدم قد أُخِذَ أخذًا خاصًا من أنثى كائن هو خلاصة خطة التطور وقمتها، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59] يشير إلى التشابه بين خلْق آدم وخلْق عيسى عليهما السلام، وقد أتى عيسى من أنثى بشرية ولم يُخلَق من التراب مباشرة، وكذلك آدم قد يكون خُلِق من أنثى كائن آخر وصل لقمة هرم التطور وأُعِدَّ ليُؤخَذ منه آدم، وليس من التراب مباشرة، وهكذا ابتدأ الله زوجية جديدة بآدم ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: 30] يمكن أن يفهم منه أنه كان هناك كائن موجود يسفك الدماء وهو الكائن الذي كان سيؤخذ منه الإنسان ثم أُبيد هذا الكائن، كما أن قوله: ﴿خَلِيفَةً﴾ يشير إلى أننا خلفاء لكائنات مضت[34].

المناقشة: قد يكون لهذا القول حججه التي تؤيده، ولكن، ليس الهدف هنا هو بيان صحة أو خطأ هذه الأقوال مجردة عن سياقاتها، بل المطلوب بيان إن كانت الآيات التي استند إليها أصحاب هذه الأقوال تحتمل هذا القول أم لا، والحقيقة أن الآيات التي تتحدث عن النفس الواحدة لا تحتمل هذا المعنى، فبالنظر في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: 1]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: 189]، وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: 6]، نجد أن الضمير وهو الهاء في (منها) وفي (زوجها) لهما نفس العائد وهو النفس الواحدة، وهذا يلزم منه أن يكون الزوج المخلوق من النفس هو زوج للنفس ذاتها، ولكن القول بأن النفس الواحدة هي أنثى كائن خُلِق منها آدم يلزم منه أن يكون الزوج المخلوق من النفس التي خُلِق منها آدم هو زوج لتلك النفس وليس لآدم، وهذا ما لا يقول به حتى أصحاب القول أنفسهم.

31 انظر: الفرّاء، معاني القرآن، 1/ 252؛ الطبري، جامع البيان، 7/ 514؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 9/ 477.

32 انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 4/ 216.

33 انظر: الزمخشري، الكشاف، 2/ 186؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 9/ 212.

34 انظر: جرار، كما انشأكم من ذرية قوم آخرين، 2017.

القول السادس:

يرى أصحاب هذا القول أن النفس الواحدة، لا يقصد بها الكائن البشري آدم، وإنما هي المادة المهيأة لخلق البشر، أو البذرة الواحدة التي أنبتها الله بحكمته، ونفخ فيها من روحه، فآدم هو وليد دورة طويلة في سلسلة التطور، وإن أول سلسلة للحياة التي تطور منها كانت الإيميبيا التي تتوالد بالانقسام[35]، فالنفس الواحدة كانت جامعة لأعضاء الذكورة والأنوثة كالدودة الوحيدة، ثم ارتقت فصار أفرادها زوجين كما يقول بعض الباحثين[36].

المناقشة: يرى أصحاب هذا القول أن النفس تعود على كائنات قديمة في أول سلسلة الحياة، وهذا يعني وفقًا لنظرية التطور ذاتها التي استندوا إليها في هذا القول أن هذه النفس كانت أصلًا لكائنات أخرى إلى أن جاء الإنسان، وبالتالي: فلا يصح هذا القول إلا بانتزاع كلمة (النفس) من سياقها؛ إذ إن التذكير بأن الناس أُنشِؤوا من نفس واحدة في الآية الكريمة كان لدفعهم إلى أن يتقوا الله بعضهم في بعض، ولا يتحقق هذا الهدف بتذكيرهم بأنهم وكل الكائنات الحية الأخرى من أصل واحد، فلا مزية لكونهم معهم من هذا الأصل المشترك.

القول السابع:

يرى أصحاب هذا القول أن الله تعالى أبهم أمر النفس التي خلق الناس منها، فلندعها على إبهامها، فإذا ثبت أن لكل صنف من أصناف البشر أبًا كان ذلك غير مخالف للقرآن كما هو مخالف للتوراة التي نصَّت صراحة على أن آدم هو أبو البشر[37].

المناقشة: من خلال النظر في الآية الكريمة يبدو أن لفظ (النفس) قد ورد في سياق تعليل الأمر بالتقوى، فالله تعالى يأمر الناس بأن يتقوا الله في بعضهم بعضًا، ويحفزهم على تنفيذ أمره بتذكيرهم أنهم جميعًا مخلوقون من نفس واحدة، ومن غير المقبول أن يُعلَّل الأمر بشيء مبهم، كما أن التصريح بإفراد لفظ النفس ثم إضافة قيد الصفة (واحدة) يجعل من غير الممكن أن تحتمل الآية معنى تعدد الأنفس التي خلق منها البشر، وخاصة أن الآيات القرآنية قد تآزرت على التأكيد على هذه الحقيقة، بل سمت هذه النفس وعينتها كما سبق بيانه في مناقشة الأقوال السابقة، فالآية الكريمة نص[38] في الأصل الواحد للبشر، وليس من المقبول أن يدعى أن الآية تحتمل تعدد الأنفس أو الآباء الذين خلقوا منهم.

يبدي هذا القول حرص أصحابه على سلامة القرآن الكريم من احتمال التناقض مع ما يمكن أن يثبت كحقيقة علمية، ولكن هذا الموقف فيه من الخطر والخطل الشيء الكثير؛ إذ يشكك بمعاني النصوص القرآنية البينة الواضحة، ويجعل العلم حاكمًا على النص، والحقيقة المسلَّم بها أن النصوص القرآنية ذات الدلالة القطعية حاكمة على موجودات العلم التجريبي ظني الدلالة، فإذا أصبح العلم قطعيًا فلا يتصور التعارض أصلًا؛ إذ لا تعارض بين القطعيات[39]، فإذا ظُنَّ وجود التعارض، فإنما سببه من الخطأ في فهم أحدهما.

35 انظر: الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، 2/ 682.

36 انظر: رضا، تفسير المنار، 4/ 271.

37 انظر: المراغي، تفسير المراغي، 4/ 175.

38 "اللفظ الذي جعل موضوعًا لمعنى، فإما أن يكون محتملًا لغير ذلك المعنى وإما أن لا يكون، فإذا كان اللفظ موضوعًا لمعنى ولا يكون محتملًا لغيره فهذا هو النص". الرازي، مفاتيح الغيب، 7/ 138.

39 انظر: السبكي، الإبهاج في شرح المنهاج، 3/ 210.

وقد بينتُ فيما سبق أن العلم التجريبي لم يستطع نفي نسبة البشر إلى أبوين اثنين، أو أن يثبت نسبهم إلى أكثر من أبوين، وأضيفُ هنا أنه من الثابت اليوم أن **كل البشر الأحياء اليوم** يعودون لأصل واحد مشترك، أطلق عليه التطوريون أنفسهم مصطلح آدم الصبغي واي Adam Y-Chromosom، وحواء الميتوكوندريا Mitochondrial Eve، تشبيهًا لهما بآدم وحواء الوارد ذكرهما في الأديان، **فمن هو آدم الصبغي واي؟ ومن هي حواء الميتوكوندريا؟**

آدم الصبغي Y: تتألف الصيغة الصبغية لكل خلية من خلايا الإنسان من 22 زوجًا من الصبغيات الجسدية وزوج واحد من الصبغيات الجنسية. يكون زوج الصبغيات الجنسية عند الذكور مكون من الصبغي X والصبغي Y، بينما يكون عند الإناث مؤلف من صبغيين XX. ينقل كل واحد من الأبوين واحد من صبغياته الجنسية إلى الابن؛ فيأخذ الابن الصبغي X من الأم، بينما يمكن أن يأخذ أحد الصبغيين X أو Y من الأب، ويتحدد جنسه اعتمادًا على نوع الصبغي الجنسي المنقول من الأب؛ فيكون ذكرًا عندما يكون الصبغي المنقول له من الأب Y ويكون أنثى عندما يكون الصبغي المنقول له X.

إن ما سبق يشير إلى أن الصبغي Y ينتقل من الاب إلى الابن الذكر بشكل مباشر ولا يتعرض لإعادة ترتيب جيني خلال الانقسام الانتصافي الذي تمر فيه بقية الصبغيات الجسمية، وبالتالي يحافظ على نفسه خلال الانتقال من جيل لآخر[40].

تحدث الطفرات بشكل مستمر في هذا الصبغي كما في باقي الصبغيات الأخرى، ولكن الطفرات هنا تنتقل من الأب إلى الابن الذكر الذي ينقلها بدوره إلى ابنه وهكذا، وبالتالي يمكن اعتبار هذه الطفرات علامة مميزة للتعرف على الصلة بين الابن والأب، فلو عُثِر على شخصين يحملان ذات الطفرة فهذا يعني أنهما ينحدران من سلف مشترك حدثت عنده هذه الطفرة للمرة الأولى، واعتمادًا على هذا الأساس يمكن إنشاء شجرة عائلة للبشرية تعتمد على الطفرات الوراثية. لوحظ أن كل البشر الأحياء ينحدرون من شخص واحد هو الشخص الكائن في قاعدَّة الشجرة، تفرعت منه كل الطفرات، وبالتالي كل البشر الأحياء، هو ما أطلق عليه أدم الصبغي واي[41]، ولا يعني هذا أنه كان الوحيد وأنه لم يكن للبشر أسلاف أخرى في زمانه، الشكل رقم (1).

40 انظر: Sadler، 2012، ص 37.

41 انظر: Beckman، 2000.

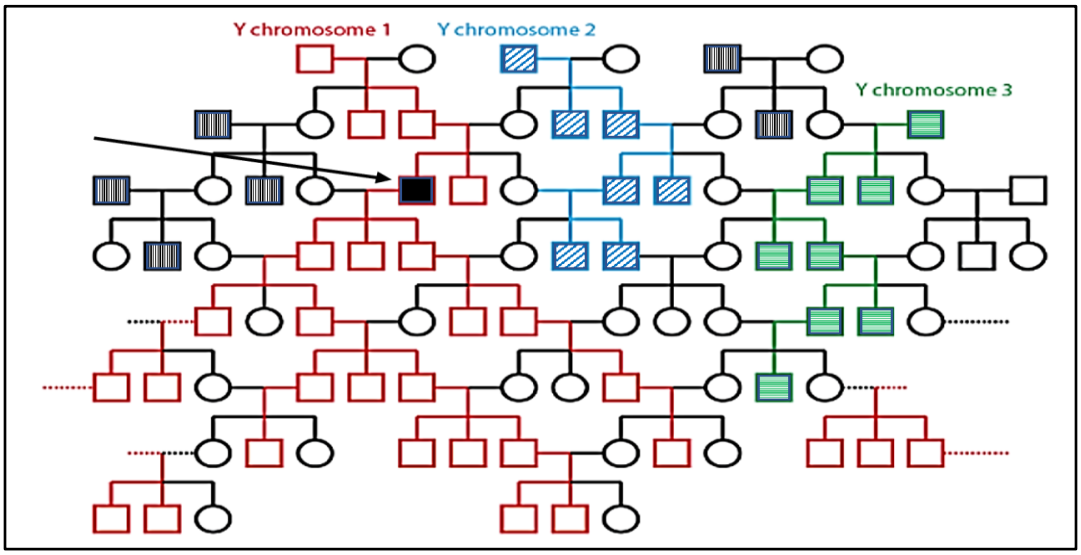

الشكل رقم (1) يبين مثالًا يوضح كيفية وجود آدم الصبغي واي ابتداء من عدَّة أسلاف[42].

يلاحظ من الشكل أنه في هذه الحالة كان للنسل ثلاثة أسلاف، ولكن نتيجة لبعض الظروف الصدفية سيطر الصبغي Y1على السكان، وكل شخص في الأجيال الأخيرة أصبح يحمل هذا الصبغي، وانقرضت بقية الأسلاف. وقد تم تمييز الرجل المشار له بالسهم باعتباره أحدث سلف ذكر مشترك؛ أي: آدم الصبغي واي الحالي[43]. يختلف آدم الصبغي واي الحالي عن آدم أبي البشر المذكور في الشرائع السماوية، فالأول هو أحدث سلف مشترك لجميع البشر الأحياء، بينما الآخر هو السلف الأول لجميع البشر.

حواء الميتوكوندريا: يشارك الوالدان بشكل متساوٍ تقريبًا في تكوين صبغيات الجنين التي تحدد جميع خصائصه، إلا أن عضيات الخلية تأتي بأكملها من بويضة الأم؛ حيث إنها الخلية التي يحدث فيها الإخصاب. المتقدرات Mitochondria هي واحدة من أهم العضيات، وهي تلعب دورًا مهمًا في إنتاج الطاقة، وتعرف باسم (مصنع الطاقة داخل الخلايا الحية). تحتوي هذه العضيات على جينومات خاصة بها، منفصلة تمامًا عن جينوم الخلية النووي، وبالتالي تحتوي الخلايا البشرية على جينومين: أحدهما في النواة، والآخر في المتقدرات التي تأتي من بويضات الإناث، وتنتقل من الأم إلى أطفالها، لذلك ينتقل الجينوم الخاص بها من جيل إلى جيل فقط من خلال الإناث[44]، الشكل رقم (2).

42 انظر: Venema، 2014.

43 انظر: السابق.

44 انظر: O'Neil، 2014.

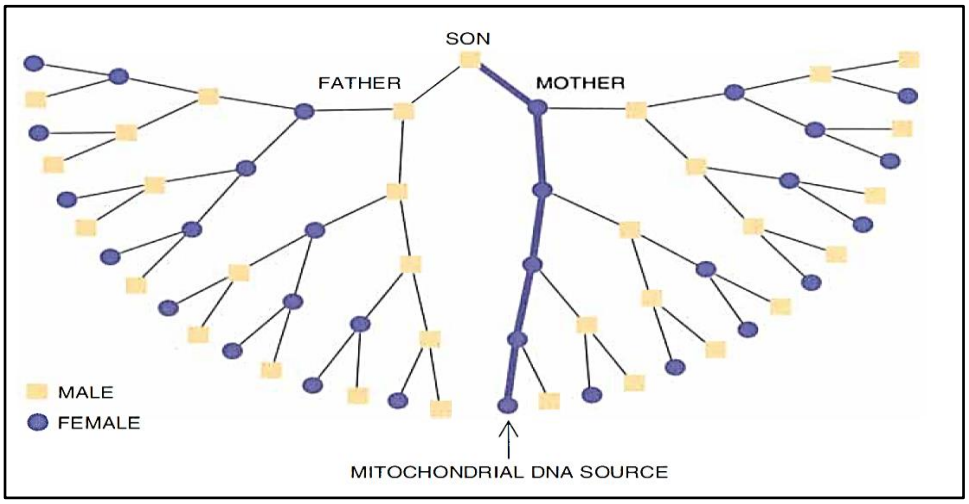

الشكل (2): يوضح شجرة النسب لشخص واحد، يلاحظ فيه الفرق بين نمطي الوراثة النووية والميتوكوندريا؛ حيث ساهم جميع الأسلاف البالغ عددهم 32 فردًا منذ خمسة أجيال بالتساوي في حمضه النووي، بينما تعود سلالته من الميتوكوندريا إلى شخص واحد فقط في كل جيل[45].

من خلال دراسة جينومات مجموعة من النساء والطفرات الطارئة على DNA في المتقدرات تمكَّن الباحثون من اكتشاف أن **جميع البشر الذين هم على قيد الحياة اليوم** ينتمون إلى امرأة واحدة[46]، أُطلِق على تلك المرأة فيما بعد اسم (حواء الميتوكوندريا)[47]. يجب الإشارة هنا إلى أن حواء الميتوكوندريا تختلف عن حواء أم البشر المذكورة في الشرائع السماوية، فالأولى هي السلف الأول لجميع البشر، في حين أن الأخيرة هي أحدث سلف مشترك لجميع البشر الأحياء.

ولا بد لتجلية الموضوع وإتمامه من بيان بعض النقاط والإجابة عن بعض التساؤلات:

– من خلال ما سبق يلاحظ أن العلم التجريبي يؤكد أن جميع البشر **الأحياء اليوم** يعودون لأب واحد وأم واحدة، وحتى ولو لم يكن هذا الأب وهذه الأم هما آدم وحواء فإن هذه النتائج هي حجة تضاف لمصلحة الأصل المشترك.

– بالطبع فإن الدراسات لم تستقص كل البشر الأحياء على الأرض وإنما تمت على عينات محددة، وهنا السؤال: ماذا يحدث في حال اكتُشِف أن هناك أشخاصًا يحملون عينات مختلفة من صبغياتY أو من صبغيات المتقدرات من سلالات متباعدَّة غير معروفة؟ إن حدث ذلك، سوف ينتقل لقب آدم الصبغي Y أو لقب حواء الميتوكوندريا إلى أشخاص عاشوا في وقت أبعد، أي سيبقى كل البشر الأحياء ينتمون لأب واحد وأم واحدة[48].

– لماذا لا يمكن إثبات وجود نسب أقدم من آدم الصبغي Y أو لقب حواء الميتوكوندريا وصولًا إلى آدم وحواء؛ أي: الأصل المشترك لجميع البشر الأحياء والأموات، بالعلم التجريبي؟

45 انظر: Wilson & Cann، 1992، ص68.

46 انظر: Cann وزملاؤه، 1987، ص31.

47 انظر: Lewin، 1987، ص24.

48 انظر: Beckman، 2000.

هذا يعود لمحدودية العلم التجريبي؛ إذ تسمح طرق تحليل الحمض النووي بالتعرف التجريبي وإعادة بناء أجزاء الحمض النووي المستخرجة من العينات البيولوجية المحفوظة لفترات طويلة من الزمن في ظروف طبيعية، كما يمكن تقدير أجزاء من جينوم الأسلاف من خلال تحليل الحمض النووي للنسل، لكن لا يمكن إعادة بناء الجينوم الكامل لأي شخص توفي منذ فترة طويلة ولم تعد تتوافر له عينة من الحمض النووي[49]؛ وبالتالي: عند الوصول إلى زمن لم يتبق من أفراده أي حمض نووي، تتوقف إمكانية متابعة البحث الجيني.

– ليس معنى أن آدم الصبغي Y وحواء الميتوكوندريا ينحدر من كل منهما جميع البشر الذين هم على قيد الحياة اليوم أن يُعتقَد أن كلًّا منهما كان الوحيد على قيد الحياة في وقتيهما، بل لا مانع من وجود عشرات الآلاف منهما حتى في أكثر الأوقات صعوبة كما تشير الأبحاث العلمية[50]، ولكنهما من استمر نسلهما إلى اليوم، وهذا لا يتعارض مع الأصل الواحد لجميع البشر؛ فالحديث هنا عن السلف الأحدث لجميع البشر الأحياء وليس عن آدم وحواء.

– لا يعني وجود آدم الصبغي Y وحواء الميتوكوندريا أنهما عاشا في نفس الوقت وتزاوجا معًا، لأن وجودهما لا يعني إلا النسب المشترك لجميع البشر الأحياء من جهة كل منهما، فهما ليسا آدم وحواء، وإنما أشخاص يحملون اللقب لأنهم أحدث سلف مشترك لجميع الأحياء، وقد ينتقل إلى من هم بعدهم في حال فنيت ذرّيَّة أحدهم ولم يتبق منها إلا طريق نسل واحد، فينتقل اللقب إلى أقدم فرد في هذا النسل المتبقي[51]. وفي هذا رد على من أنكر وجود آدم وحواء محتجًا بالدراسات التي استنتجت تباعد الفترة الزمنية التي عاش فيها كل منهما[52]، على الرغم من وجود بعض الدراسات التي تشير إلى أنهما ربما عاشا في نفس الوقت[53].

المطلب الثاني: خلق زوج النفس الواحدة:

أشار القرآن الكريم إلى خَلْق وجَعْل زوج للنفس الواحدة التي خلقها الله بقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: 1]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189]، وقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: 6]

اختلف المفسرون في المراد بـ (الزوج) في الآيات الكريمات اعتمادًا على اختلافهم في تفسير معنى النفس الواحدة كما مر، كما اختلفوا في كيفية خلق زوج تلك النفس منها على أقوال:

49 انظر: Grigorenko وزملاؤه، 2009، ص58.

50 انظر: Takahata، 1993، ص2.

51 انظر: Wilson & Cann، 1992، ص68.

52 انظر: Cann وزملاؤه، 1987، ص31؛ Pritchard وزملاؤه، 1999، ص1791؛ Thomson وزملاؤه، 2000، ص7360.

53 انظر: Poznik وزملاؤه، 2013، ص562.

القول الأول:

المقصود بالزوج حواء[54]؛ فإن حواء أُخرِجت من ضلع آدم كما يقتضيه ظاهر قوله: (منها)، وهو ظاهر قوله صلى الله عليه وسلم: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ»[55]، وتكون (من) تبعيضية؛ أي: إن حواء خلقت من جزءٍ من آدم[56]. ومنهم من أورد هذا القول فقال: "ومعناه المراد عند الجمهور أن الله خلق لتلك النفس التي هي آدم زوجًا منها وهي حواء، قالوا: إنه خلقها من ضلعه الأيسر، وهو نائم، وذلك ما صُرِّحَ به في الفصل الثاني من سفر التكوين، وورد في بعض الأحاديث كقوله صلى الله عليه وسلم: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ»، ولولا ذلك لم يخطر على بال قارئ القرآن"[57].

المناقشة: يشير ظاهر الآيات إلى أن خلق حواء كان ابتداءً من آدم، وليس فيها تصريح بخلق حواء من ضلع آدم ولا تدل على هذا المعنى[58]، والحديث الشريف فيه أن المرأة خُلِقت من ضلع، وليس فيه نص على حواء ولا على ضلع آدم ولا على الضلع الأيسر[59]. والقصّة التي تفصِّل في كيفية خلق حواء من ضلع آدم هي من الإسرائيليات[60]، وورودها في الكتاب المقدس بنفس التفاصيل قد يشير إلى تأثر من ذكرها من المفسرين بما نُقِل عن أهل الكتاب، وهنا نحن مأمورون بالتوقف، فلا نصدِّق الخبر ولا نكذبه لقوله صلى الله عليه وسلم: «مَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ، وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ»[61]، وبالتالي فالمقدار المقبول من هذا القول هو أن خلق حواء كان ابتداءً من آدم، كما تشير الآيات إلى أن خلقها كان بعد خلق آدم وليس مزامنًا له.

القول الثاني:

يعني من جنسها ليكون بينهما ما يوجب التآلف والتضام؛ فإن الجنسية علَّة الضم، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21][62]؛ أي: أوجد تلك الحقيقة أولًا، ثم خلق لها زوجها من جنسها[63]. فالمراد أنه خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجًا هو إنسان يساويه في الإنسانية[64].

---

54 انظر: جوهري، الجواهر، 3/ 5؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 4/ 215.

55 صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذرِّيَّته، رقم 3331، 4/ 133. وصحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم 60 – (1468)، 2/ 1091.

56 انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 4/ 215.

57 انظر: رضا، تفسير المنار، 4/ 270؛ المراغي، تفسير المراغي، 4/ 175.

58 انظر: الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، 2/ 683؛ إبراهيم، حواء:هل خلقت من ضلع آدم؟، 2012.

59 هذا القول للدكتور سلمان فهد العودة، ومع ذلك رجح القول بخلق حواء من ضلع آدم الأيسر وهو نائم. انظر: العوده، برنامج آدم، 2014.

60 جاء في الكتاب المقدس: {فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا(22) وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ(23) فَقَالَ آدَمُ: «هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي، هذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ(24) لِذلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا(25)} [الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح الثاني]. (موسوعة العيون المعرفية، 2012).

61 سنن أبي داود، كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، رقم 3644، 5/ 487. قال محقق الكتاب شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

62 انظر: القاسمي، محاسن التأويل، 3/ 6؛ رضا، تفسير المنار، 4/ 270؛ المراغي، تفسير المراغي، 4/ 175.

63 انظر: رضا، تفسير المنار، 4/ 270.

64 انظر: المراغي، تفسير المراغي، 4/ 175.

المناقشة: قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ هو كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: 164]، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: 128] ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النحل: 72]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: 21]، ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الشورى: 11]، ومن الواضح أن (من) فيها لبيان الجنس، وليست تبعيضية، ما يرجّح أنها في آيات الخلق تشمل بيان الجنس أيضًا.

القول الثالث: الضمير في (منها) يشير إلى النفس الواحدة لا بوصفها كائنًا بشريًّا هو آدم وإنما باعتبارها مادّة مهيَّأة لخلق البشر، ومن هذه المادة كان خلق آدم، ومن هذه المادة أيضًا كان خلق زوجه التي يكتمل بها وجوده[65]. وقيل: قد تكون حواء مخلوقة من بقية الطينة التي خلق منها آدم[66].

المناقشة: يريد أصحاب هذا القول أن كلًّا من آدم وزوجه خُلِقا من مادة واحدة مهيَّأة لخلقهما، ولكن البناء اللغوي للآيات لا يحتمل هذا المعنى، وبيان ذلك أن الأصل أن يعود الضمير في كل من (منها) و(زوجها) إلى مرجع واحد، وهذا المرجع بحسب أصحاب هذا القول هو تلك المادة المهيأة لخلق البشر، ولكن عندها سيعود الضمير في (زوجها) على تلك المادة التي خلق منها آدم؛ أي: سيكون الزوج لتلك المادة وليس لآدم، وهذا المعنى لا يصح حتى عند أصحاب هذا القول، ولا تحتمله الآيات؛ إذ فيها تصريح بخلْق أو جعْل زوج النفس منها، سواء أكانت (من) تبعيضية أم جنسية. ولا يمكن ادعاء اختلاف عود الضمير في (منها) وفي (زوجها) إذ لا موجب للاختلاف، ولا قرينة لعود كل منهما.

أما قولهم إن حواء مخلوقة من بقية الطينة التي خلق منها آدم فلا دليل نقلي عليه، وهو مما لا سبيل لإدراكه بالعقل. وأما الآيات فلا تدل عليه، بل تنافيه؛ لأنها تشير إلى أن الزوج مخلوق من النفس الواحدة، لا أن كلًا منهما مخلوق من طينة واحدة، أو أن أحدهما مخلوق من بقية طينة الآخر.

المطلب الثالث: خلق وتصوير الذرِّيَّة مع خلق وتصوير آدم عليه السلام:

تحدث القرآن الكريم عن خلق الإنسان وتصويره في العديد من الآيات الكريمات؛ ووصف الله ذاته العلية بأنه ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: 24]، وامتنَّ على البشر بتصويرهم بأحسن صورة فقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: 3]، ولعل الآية الأوضح التي اجتمع فيها الخلق والتصوير هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: 11]، وقد تنوعت أقوال المفسرين في معاني الخلق والتصوير في الآية على عدَّة أقوال:

القول الأول:

خلقنا أصلكم ثم صوَّرناه؛ فتعلُّق فِعْلَي الخلق والتصوير بضمير المخاطبين مراد منه أصل نوعهم الأول وهو آدم، بقرينة تعقيبه بقوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، فنزل خلق أصل نوعهم وتصويره منزلة خلق أفراد النوع –ومنهم المخاطبون– وتصويرهم، فهما ليسا من الخصائص المقصورة على آدم عليه السلام، بل من الأمور السارية إلى ذرِّيَّته جميعًا؛ إذ الكل مخلوق بخلقه على نمطه، ومصنوع على شاكلته[67].

65 انظر: الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، 2/ 683؛ إبراهيم، حواء:هل خلقت من ضلع آدم؟، 2012.

66 انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 4/ 215.

67 انظر: القاسمي، محاسن التأويل، 5/ 12؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 8ب/ 36.

المناقشة: الخلق غير التصوير؛ إذ إنهما معطوفان بـ (ثم)، والعطف يكون بين المتغايرات؛ ذوات أو صفات[68]. ولما كانت ثم تفيد الترتيب والتراخي، والمقام مقام امتنان وتعداد لنعم الله على الناس كان التصوير نعمة مضافة إلى الخلق.

الخلق في أصل اللغة: التقدير؛ يقال: خلق الخراز الأديم والخياط الثوب؛ أي: قدره قبل القطع، ثم أُطلِق مجازًا على إيجاد الشيء المقدَّر على صفة مخصوصة. ومنه: خلق الله الخلق؛ أي: أوجده على تقدير أوجبته الحكمة[69]، ولكن هذا المجاز اللغوي صار حقيقة شرعية[70]. والتصوير: تحويل الشيء المقدر إلى صورة، أو تشكيله بجسم كما يشكل الطين بصورة نوع من الأنواع[71].

هذا القول مقبول تحتمله الآية الكريمة، فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ هو كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 2]، وقوله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: 5]. كما يتماشى هذا القول مع أسلوب القرآن الكريم في الخطاب؛ فمن عادة القرآن الكريم مخاطبة الخلف بمتعلق السلف، ونجده يستخدم هذا الأسلوب في آيات كثيرة، كما في قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ۞ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۞ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ۞ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 49 – 52]، وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۞ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 55، 56]، وغيرها الكثير.

القول الثاني:

قدَّرنا إيجادكم ثم صوَّرنا مادتكم، وذلك شامل لخلق آدم كما هو شامل لخلق الناس؛ إذ إن كل فرد يقدِّر الله خلقه ثم يصوِّر المادة التي يخلقه منها في بطن أمه[72].

المناقشة: يتألف هذا القول من قسمين؛ أولهما: أن الخلق والتصوير يشمل آدم، ويشمل ذرِّيَّته، وهذا يتوافق مع دلالة الآية الكريمة، فمن المعلوم أن خطاب الجماعة هو بمثابة خطاب لكل فرد منها على حدة، بل إن الخطاب في الآية الكريمة موجه للناس كلهم أصالة لا تبعًا بدلالة السياق؛ إذ إن الآية معطوفة على ما قبلها من قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 10]، وكما أن التمكين والجعل يشمل المخاطبين فكذلك الخلق، وبذلك يترجح أن الخلق والتصوير كما التمكين والجعل هما للناس كلهم وليس فقط لآدم عليه السلام.

وثانيهما: أن التصوير يدل على تصوير الذرِّيَّة في الأرحام، وهذا القول وإن صحَّ في ذاته إلا أن الآية الكريمة لا تحتمله، فهو مما يأباه ترتيب الأفعال وعطفها بـ (ثم) التي تدل على الترتيب والتراخي في الآية الكريمة؛ إذ كيف يكون التصوير في الأرحام سابقًا لأمر الملائكة بالسجود؟

68 انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 2/ 474.

69 انظر: الزمخشري، أساس البلاغة، 1/ 264.

70 انظر: رضا، تفسير المنار، 8/ 292.

71 انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 8ب/ 36.

72 انظر: رضا، تفسير المنار، 8/ 292؛ المراغي، تفسير المراغي، 8/ 110.

القول الثالث:

تشير الآية الكريمة إلى أن خلق آدم لا ينفصل عن خلق ذرّيَّته أو نسله، فخلق آدم وتصويره شمل تكوين كل التفاصيل المهمة كبرمجته وتشكيل الجينات فيه، ونحن نسل فقط من آدم، وخلقنا هو استمرار وتتمة لخلقه، ويكتمل خلق آدم مع خلق آخر إنسان من نسله قبل يوم القيامة، بدليل قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59]، قال: (فيكون) وليس (فكان)؛ أي: عملية خلق آدم عملية مستمرة وهي خلق نسله منه حتى يولد آخر هذا النسل[73]، فالأمشاج خلقت في البداية في خلايا آدم من قبل أمر الملائكة بالسجود له، وهي الحمض النووي الذي يحمل صورة طبق الأصل عنه؛ أي: الصورة الجينية لصورته الشكلية، وهو أيضًا الأصل الذي ستُصوَّر الذرية كلها منه عبر انتقاله من الآباء للأبناء[74].

المناقشة: يدل الفعل الماضي في الأصل على حدثٍ وقع وانقضى، فقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ ظاهره أن خلْقَ وتصويرَ الذرِّيَّة كان مصاحبًا لخلق وتصوير آدم عليه السلام، لا سيما أن هذه الأفعال سبقت بـ (قد) التي تفيد هنا التحقيق والتأكيد[75]، صحيح أن الفعل الماضي قد يدل على المستقبل إذا أريد به الدلالة على تحقيق وقوعه، كأنه قد وقع وبخاصة في أخبار الله تعالى لصدق وقوعها[76]، ولكن عطف الأمر بالسجود على الخلق والتصوير بـ (ثم) يقتضي أن الخلق والتصوير كانا قبل الأمر بالسجود، وبما أن الأمر بالسجود وقع وانقضى يقينًا، فكذلك الخلق والتصوير لكل من آدم والذرِّيَّة واقع ومنقض إن تأكد أن الخطاب يشمل الذرِّيَّة، وقد تم تأكيد ذلك في سياق مناقشة القول السابق، بهذا يكون في خلق آدم وتصويره خلق للذرِّيَّة وتصويرها، حقيقة لا مجازًا، ويكون خلق الذرِّيَّة وتصويرها جزءًا من خلق آدم وتصويره.

تعزز موجودات العلم التجريبي هذا القول وتنسجم معه؛ حيث تتحدد صفات الفرد اعتمادًا على المادة الوراثية التي يحتويها، والتي تدعى بمجموعها بالجينوم البشري Human genome[77]؛ وهو كامل المادة الوراثية المعروفة باسم الحمض النووي الريبي منقوص الأكسجين DNA. يحتوي الجينوم البشري على ما يقارب 30 ألف جين أو مورِّثة موجودة ومرتبة على شكل ثلاثة وعشرين زوجًا من الصبغيات في نواة الخلية. والجينات أو المورِّثات هي الوحدات الأساسية للوراثة في الكائنات الحية ومنهم البشر، وضمن هذه المورِّثات يتمُّ تشفير المعلومات اللازمة لتكوين أعضاء الجنين والوظائف الحيويّة له، وبالتالي فإن هذه المورِّثات هي التي تحدد صفات الفرد وسلوكياته، والفروق بين الأفراد تعود لفوارق في المورِّثات التي يحملها كل فرد[78].

---

73 انظر: جرار، لكل نبأ مستقر، 2019.

74 انظر: أبو النجا، حديث القرآن والسنة عن الحمض النووي، 2019.

75 تفيد (قد) مع الفعل الماضي أحد ثلاثة معان؛ التوقع: فتدل على أنه كان متوقعًا منتظرًا ولذلك يستعمل في الأشياء المترقبة ومنه قول المؤذن: (قد قامت الصلاة)، والتقريب: أي تقريبه من الزمن الحاضر كقوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ﴾ [الأنعام: 119]، والتحقيق: أي تأكيد الوقوع نحو ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: 1]. انظر: المرادي، الجنى الداني، ص 256– 259.

76 انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 3/ 377.

77 بدأ العمل على وضع خارطة الجينوم البشري في الأول من تشرين الأول لعام 1990م، وقد أعلن الاتحاد الدولي لتسلسل الجينوم البشري International Human Genome Sequencing Consortium عن النسخة النهائية المكتملة للجينوم البشري في الرابع عشر من نيسان لعام 2003م. انظر: Human Genome Project، 2020.

78 انظر: السابق.

تنتقل المادة الوراثيّة من جيل لآخر خلال عملية التكاثر؛ حيث يكتسب كل فرد جديد نصف مورِّثاته من أحد والديه والنصف الآخر من الوالد الآخر[79]. تتحكم المورِّثات في الصفات التي سيرثها الفرد من والديه، وتتحكم أيضًا في تكاثر الخلايا وفي وظائفها من خلال تحديد العناصر والمركبات والإنزيمات والمواد الكيميائية التي ستتولد في داخل الخلية. كما تحوي المورِّثات المعلومات الأساسية لبناء البروتينات والإنزيمات والمواد الحيوية اللازمة لبناء أعضاء الجسم، وإنتاج المواد في الأعضاء المختلفة لتقوم بوظائفها، كما أنها تحمل الساعة البيولوجية التي يتطور بها الكائن الحي منذ مرحلة البويضة المخصبة، مرورًا بتكوين الأعضاء، ووصولًا إلى مرحلة الطفولة ثم البلوغ ثم النضج ثم الشيخوخة وانتهاء بالموت[80]، وبهذا فإن صفات الجنين سوف تتحدد بمجرد حدوث عملية الإخصاب التي تجتمع فيها نطفة الأب مع بويضة الأم، فتجتمع فيها المورِّثات التي ستحكم مصير الفرد المتشكل طوال حياته. يشير مصدر المورِّثات –التي لا تتركب عند تكوين الفرد بل تنتقل إليه من أبويه– إلى وجود أصل أول تكونت فيه هذه المورِّثات وبدأت بعدها تنتقل من جيل إلى جيل استنادًا إلى بديهية بطلان التسلسل، تعيد الأديان هذا الأصل الأول إلى آدم عليه السلام الذي خُلِقت البشرية بخلقه وصُوِّرت بتصويره، وكأن تصوير آدم هو بناء صورته داخل نواة الخلية؛ بحيث تشكل تلك الصورة الأصل الذي سيصور منه كل نسله عليه السلام إلى قيام الساعة، ولعل في دمج صور الأبوين لتكوين صورة الأبناء تصوير آخر يحدث في الأرحام سيتم الحديث عنه في سياق تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 6] إن شاء الله.

القول الرابع: في الآية الكريمة بيان لخلق الإنسان وتقلُّبه في أطوار الخلق خلال مراحله الطويلة طورًا بعد طور حتى وصل إلى مرحلة التصوير بالصورة الإنسانية الكاملة وهي صورة الإنسان العاقل الرشيد، وفي هذه الآية تأكيد لخلق آدم عبر تطوره[81].

المناقشة: يعكس هذا القول القناعة بالأصل الواحد للكائنات على الأرض، وأنها جميعًا نشأت من خلية واحدة تطورت عبر الزمن وارتقت إلى أن نشأ الإنسان من أحد فروعها. يرى أصحاب هذا القول في هذه الآيات الكريمة دلالة على أنّ خلق الإنسان كان من الطين في البداية ثم تلته مراحل بينها فواصل زمنية قبل الوصول الى صورته الأخيرة. وقد تكرر ذكر كلمة (ثمّ) التي تدل على الترتيب مع التراخي في الزمن، فالمسألة ربما ليست مسألة لحظية بين الخلق من الطين والتصوير بشرًا سويًا ثم الأمر بالسجود، فالتراخي في الزمن هنا قد يدل على أن الفاصل الزمني بين المرحلتين قد يكون طويلًا.

والحقيقة أن هذه الآية الكريمة إضافة إلى العديد من الآيات الأخرى التي تفصِّل في مراحل خلق الإنسان ومادة خلقه ثم تسويته وتصويره ثم أمر الملائكة بالسجود له تحتمل هذا المعنى إلا أنها لا تؤكده، ولا موجب لرد هذا القول إلا من جهة حسمه لدلالة الآية الكريمة بقولهم: "إن في الآية تأكيدًا لخلق آدم عبر تطوره"، أما من جهة عدم تعارض الآية مع هذه المعاني فيمكن قبوله، وبخاصة أنه قد تآزرت على تأكيده الكثير من حقائق العلم التجريبي.

79 انظر: Sadler، 2012، ص 32.

80 انظر: O'Neil، 2014.

81 انظر: الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، 4/ 371.

المطلب الرابع: إنشاء الذرِّيَّة بعضها من بعض:

أشار القرآن الكريم إلى أن بداية خلق ذرية آدم كانت مع بداية خلقه عليه السلام، وقد هدد إبليس بإغوائها، قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 62]، ثم أشار إلى حصر ذرية البشر بعد ذلك بذرية من نجا مع نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ۞ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۞ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: 77 – 79]، وقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: 3]، وأشار إلى إنشاء الذرية بعضها من بعض بقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]. وقد اختلفت أقوال المفسرين في تفسير الآية الأخيرة إلى عدَّة أقوال:

القول الأول: إن يشأ الله إذهابَكم –أيها الكافرون برسوله المعاندون له– واستخلافَ غيركم بعدكم يُذهِبْكم بعذاب يهلككم به، كما أهلك أمثالكم من معاندي رسله كعاد وثمود وقوم لوط، ويستخلف من بعدكم ما يشاء من الأفراد أو الأقوام، فإنه قادر على إهلاككم، وإنشاء قوم آخرين من ذرِّيَّتكم أو ذرِّيَّة غيركم، أحق برحمته منكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: 38]؛ فإمهاله تعالى هو رحمة من رحمته وإحسان من إحسانه، وفيه حجة عليهم[82].

المناقشة: ظاهر الآيات الكريمات يؤيد هذا القول، كما أن السياق يدل عليه، فسباقه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ۞ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 131، 132]، فالحديث عن الأمم السابقة التي أُهلِكت بسبب ظلمها، وفي قصصها من العبرة ما يكفي لكل من كفر وظلم، ثم يأتي قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام: 133]، فيه تهديد لمن عاند وأصرَّ على الكفر بأن الله قادر على استئصالهم كما فعل بمن سبق من الأمم الكافرة، واستخلاف غيرهم، ويأتي بعد ذلك اللحاق بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام: 134] وهذه الآية كالتذييل لما سبق[83]، لتأكيد التهديد والقدرة على إنفاذه.

القول الثاني: يجوز أن يكون التشبيه في الآية في إنشاء موجودات من بقايا معدومات كما أنشأ البشر نشأة ثانية من ذرِّيَّة من أنجاهم الله في السفينة مع نوح عليه السلام، فيكون الكلام تعريضًا[84] بإهلاك المشركين ونجاة المؤمنين من العذاب؛ أي: إن يشأ الله يهلك الكافرين منكم ويستبقِ على المؤمنين ليستخلفهم وذرِّيَّتهم بعدكم كما أهلك الكافرين من قوم نوح واستخلف المؤمنين منهم وذرِّيَّتهم[85].

المناقشة: ليس في الآية الكريمة تصريح بهذا المعنى، وقبوله يوجب تخصيص العام بلا موجب، فـ (ما) في قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ عام يجب أن يبقى على عمومه إذ لا قرينة موجبة لتخصيصه بمن يبقى من المخاطبين من المؤمنين بعد إهلاك الكافرين منهم، بل إن قوله: ﴿مِنْ ذرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ يعزز العموم في خيارات الاستخلاف، لا تخصيصها

82 انظر: القاسمي، محاسن التأويل، 4/ 497؛ رضا، تفسير المنار، 8/ 101؛ المراغي، تفسير المراغي، 8/ 38؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 8أ/ 86– 87؛ الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، 4/ 313– 314.

83 التذييل: أن يُؤتى بعد الجملة الأولى بجملة أخرى تشتمل على معناها إمَّا لتأكيد المنطوق، وإمَّا لتأكيد المفهوم. انظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، 207/3.

84 التعريض: هو اللفظ الدالُّ على شيء مِنْ طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقيّ ولا بالمجازيّ، ومثاله قوله تعالى: ﴿ونَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: 45]؛ فهذه الجمل في الآية الكريمة خبريَّة لفظًا، وطلبيَّة مِنْ جهة المعنى. ويختصُّ التعريض كما هو مُلاحَظ باللفظ المركَّب، ولا يأتي في اللفظ المفرد البتَّة. انظر: ابن الأثير، المثل السائر، 186/2.

85 انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 8أ/ 86– 87.

في المؤمنين منهم، فكفار العرب ومؤمنوهم كانوا قومًا واحدًا وذرّيَّة بعضها من بعض. من جهة أخرى، فإن هذا القول يوهم أن إهلاك الكافرين واستخلاف المؤمنين حدث مرة واحدة تلك التي كانت مع قوم نوح، مع أن إهلاك الأمم الكافرة واستخلاف غيرهم هو سنة إلهية جارية مطَّردة منذ بدء الخلق إلى قيام الساعة، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: 6].

القول الثالث:

الكلام هنا موجه للبشر جميعًا، فسياق الآيات كله موجه للبشر عمومًا[86]، ومن الممكن أن يكون في الآية تهديد للجنس البشري بالفناء واستخلاف خلق آخر غيرهم إن هم أصروا على عنادهم وكفرهم، كما أفنى من قبلهم من الكائنات واستخلفهم بعدهم. من الممكن أن يكون آدم قد أخذ أخذًا خاصًا من كائن كان قبله كان يسفك الدماء وهو الكائن الذي أخذ منه الإنسان ثم أبيد، ولذلك قالت الملائكة في قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: 30]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾، وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِكُمْ﴾ دلالة على أن استخلاف غيرهم سيكون بعد فناء البشر، كما كان استخلاف الإنسان بعد فناء الكائن الذي أخذ منه، وقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾ هو كقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة: 30]، فالبشر خلفاء لكائنات مضت، والله قادر على إفنائهم واستخلاف غيرهم من بعدهم كما حدث عند استخلافهم من ذرّيَّة قوم آخرين؛ أي: من كائنات أخرى. ولا يصح أن يقال إن المعنى: كما أنشأ البشر نشأة ثانية من ذرّيَّة من نجى مع نوح عليه السلام لأنهم ليسوا قومًا آخرين، بل كلنا ذرّيَّة واحدة وهم آباؤنا لقوله تعالى: ﴿ذرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: 3]، فيبقى أن يكون القوم الذين نشأ منهم البشر جنس آخر قد أبيد[87]. وقريب منه من قال: الكلام هنا موجه للبشر، فالله اصطفى آدم كما في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 33، 34] من خليقة هو ينتمي إليها، وهذا معنى قوله: ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾، هم من قاست عليهم الملائكة في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: 30][88].

المناقشة:

سياق الآيات يتحدث عن إهلاك الأمم والقرى السابقة كجزاء لهم على إصرارهم على الكفر، ثم أتى التهديد للكافرين برسول الله بأن مصيرهم سيكون مثل مصير من سبقهم من الإفناء واستخلاف غيرهم، وهو كقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ [التوبة: 39]، وكقوله: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: 38]، وهذا من عادة القرآن في حوار الكافرين المعاندين؛ إذ يهددهم بالإفناء والاستبدال إن هم أصروا على الكفر.

---

86 هذا القول وإن كان جديدًا لكن له أصل في تفاسير المتقدمين، فقد نقل الإمام الرازي عن أبي مسلم الأصفهاني المعتزلي (ت322هـ) قوله: "بل المراد أنه قادر على ان يخلق خالقا ثالثا مخالفا للجن والإنس"، ثم نقل عن القاضي عبد الجبار الهمداني (ت415هـ) قوله: "وهذا الوجه أقرب لأن القوم يعلمون بالعادة أنه تعالى قادر على إنشاء أمثال هذا الخلق فمتى حمل على خلق ثالث ورابع يكون أقوى في دلالة القدرة فكأنه تعالى نبه على أن قدرته ليست مقصورة على جنس دون جنس من الخلق". مفاتيح الغيب للرازي، 13/ 156.

87 انظر: جرار، كما انشأكم من ذرية قوم آخرين، 2017.

88 انظر: إبراهيم، حيوان وزيادة – ج 1، 2022.

وأما قولهم: إن لفظ (آخرين) يشعر بأن الاستخلاف كان لنوع أو جنس على حساب نوع أو جنس آخر، لأن البشر المخاطبين كلهم من ذرّيَّة واحدة هي ذرّيَّة من نجى مع نوح عليه السلام؛ فصحيح أن كل من نجى مع نوح عليه السلام ذرّيَّة واحدة، بل إن البشر كلهم من لدن آدم عليه السلام ذرّيَّة واحدة، فهذا مما لا خلاف فيه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 33، 34]، ولكن (آخرين) هي صفة لـ (قوم) وليس لـ (ذرّيَّة)، وبذا يكون الاستبدال لجماعة من الناس بجماعة أخرى، وليس لذرّيَّة من الخلق بذرّيَّة أخرى؛ إذ (القوم) في أصل اللغة هم الجماعة من الناس، ويُستخدَم عادة للرجال دون النساء، كما في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ [الحجرات: 11]، وقومُ كل رجل: شيعته وعشيرته[89]. **ويلاحظ أن الآية الكريمة تقول:** ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذرّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾، ثم يأتي قوله تعالى بعدها: ﴿قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ لينبه أن قوم الأولى تقابل قوم الأخرى؛ أي: جماعة الناس التي استبدلت، تقابل جماعة الناس الذين يوجه لهم التهديد بالاستبدال، وهذا المعنى هو ظاهر الآية، الذي يؤيده السياق، أما أن يكون المقصود بالقوم المستبدلين كائنات أو أجناسًا أخرى فليس في الآية تصريح به، وإلا لاستخدم القرآن لفظ جنس أو نوع أو كائن بدلًا من لفظ (قوم).

الخاتمة:

من خلال استعراض أقوال المفسرين ومناقشة أدلتهم في ضوء قواعد تفسير النصوص ونتائج العلم التجريبي يمكن أن نستخلص النتائج التالية:

1- الراجح أن يكون المقصود بالنفس الواحدة في القرآن الكريم هو آدم عليه السلام. ولا يصح أن يختلف المقصود بها بحسب المخاطب فيكون تارة قصيًّا وتارة قريشًا وتارة عدنان وتارة غيرهم، كما لا يصح أن تكون تلك النفس الواحدة عائدة على أكثر من آدم أو أكثر من أب للبشر، أو أن يكون المقصود بها حواء، أو أن تكون أنثى كائن أُخِذ منه آدم، أو أن تكون مادة مهيأة لخلق البشر أو كائنًا في أول سلسلة الحياة، أو أن الله أبهم أمرها.

2- الراجح أن يكون المقصود بالزوج في الآيات التي تتحدث عن أصل خلق البشر هو حواء، وأنها خُلِقت ابتداءً من آدم، وأن خلْقها كان بعد خلْق آدم وليس مزامنًا له، كما أنها خُلِقت من جنسه ليكون بينهما ما يوجب التآلف والمودة، وليس في الآيات تصريح بخلق حواء من ضلع آدم، ولا تحتمل أن يكون المقصود منها أن حواء مخلوقة مع آدم من مادة مهيأة لخلق البشر أو من بقية الطينة التي خلق منها آدم عليه السلام.

89 انظر: الفراهيدي، العين، 5/ 231؛ ابن فارس، مقاييس اللغة، 5/ 43.

3- من المقبول أن يكون المقصود بالخلق والتصوير في آية سورة الأعراف هو آدم، وأن يكون ضمير المخاطبين قد جاء باعتبار أن الأفعال قد وقعت على أصل نوعهم الأول، كما أن من المقبول أن يكون الخلق والتصوير شاملًا لآدم، وشاملًا لذرِّيَّته معه حقيقة لا مجازًا، وأن يكون في خلق آدم وتصويره خلق وتصوير للذرِّيَّة. ويُحتمَل أن يكون في الآية الكريمة إشارة إلى تقلُّب الخلق في أطوار حتى الوصول إلى مرحلة خلق الإنسان؛ فالآية الكريمة معززة بغيرها من الآيات تحتمل هذا المعنى -إن صح- إلا أنها لا تؤكده. ومن غير المقبول أن يكون المقصود بالتصوير في الآية الكريمة تصوير الذرية في بطون الأمهات؛ إذ إن سياق الآية هنا لا يحتمل هذا المعنى، ومحل التصوير في الأرحام آيات أخرى سيأتي بيانها في أبحاث قادمة إن شاء الله.

4- الراجح في معنى الإذهاب والاستخلاف في آية سورة الأنعام أن الخطاب موجه للكافرين برسول الله بإفنائهم واستخلاف غيرهم من الأقوام الأخرى إن هم أصروا على الكفر والعناد. وليس في الآية الكريمة تصريح بإهلاك الكافرين والاستبقاء على المؤمنين لاستخلافهم وذرِّيَّاتهم، كما أنها لا تحتمل أن يكون التهديد موجهًا للجنس البشري بالفناء واستخلاف خلق آخر غيرهم، والله تعالى أعلم.

التمويل:

هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل (501100020595).

المراجع:

1. ابن الأثير، نصر الله بن محمد الجزري (ت637هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، (د. ط)، المكتبة العصرية، بيروت،1420هـ.
2. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد (ت1393هـ)، التحرير والتنوير، (د. ط)، الدار التونسية، تونس، 1984م.
3. ابن عطية، عبد الحق بن غالب الأندلسي (ت542هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام محمد، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ.
4. ابن فارس، أحمد القزويني (ت395هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، (د. ط)، دار الفكر، بيروت، 1399هـ/1979م.
5. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت275هـ)، سنن أبي داود، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد كامل قره بللي، الطبعة الأولى،
6. البخاري، محمد بن إسماعيل (ت256هـ)، صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة الأولى، دار طوق النجاة، بيروت، 1422هـ.
7. جوهري، طنطاوي (ت1358هـ)، الجواهر في تفسير القرآن الكريم، (د. ط)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1351هـ.
8. الخطيب، عبد الكريم يونس (ت1429هـ)، التفسير القرآني للقرآن، (د. ط)، دار الفكر العربي، القاهرة، (د. ت).
9. الرازي، فخر الدين محمد بن عمر (ت606هـ)، مفاتيح الغيب، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ.
10. رضا، محمد رشيد القلموني الحسيني (ت1354هـ)، تفسير القرآن الحكيم – تفسير المنار، (د. ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990م.
11. الزركشي، محمد بن عبد الله (ت794هـ)، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ/1998م.
12. الزركشي، محمد بن عبد الله (ت794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1376هـ/1957م.
13. الزمخشري، محمود بن عمرو (ت538هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، تحقيق عبد الرزاق المهدي، (د. ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت).
14. السبكي، تقي الدين علي بن عبد الكافي (ت756هـ)، الإبهاج في شرح المنهاج، (د. ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1416هـ/1995م.

15. السكاكي، يوسف بن أبي بكر الخوارزمي (ت626هـ)، مفتاح العلوم، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ/1987م.
16. صالح، محمد أديب (ت1438هـ)، تفسير النصوص في الفقه الإسلامي، الطبعة الرابعة، المكتب الإسلامي، بيروت، 1413هـ.
17. الطبري، محمد بن جرير (ت310هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد شاكر، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1420هـ/2000 م.
18. الفراء، يحيى بن زياد (ت207هـ)، معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف النجاتي ومحمد علي النجار وعبد الفتاح الشلبي، الطبعة الأولى، دار المصرية، مصر، (د. ت).
19. الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت170هـ)، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، (د. ط)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، (د. ت).
20. القاسمي، محمد جمال الدين (ت1332هـ)، محاسن التأويل، تحقيق محمد باسل عيون السود، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ.
21. القزويني، محمد بن عبد الرحمن (ت739هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي الطبعة الثالثة، دار الجيل، بيروت، (د. ت).
22. المرادي، بدر الدين حسن بن قاسم (ت749هـ)، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ/1992م.
23. المراغي، أحمد بن مصطفى (ت1371هـ)، تفسير المراغي، الطبعة الأولى، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1365هـ/1946م.
24. Cann, R., Stoneking, M. & Wilson, A. (1987). Mitochondrial DNA and human evolution. Nature, 325, 31–36. https://doi.org/10.1038/325031a0
25. Doxiadis, G. G., de Groot, N., de Groot, N. G., Rotmans, G., de Vos-Rouweler, A. J., & Bontrop, R. E. (2010). Extensive DRB region diversity in cynomolgus macaques: recombination as a driving force. Immunogenetics, 62(3), 137-147. https://doi.org/10.1007/s00251-010-0422-7
26. Ewens, W. J. (1990). Population genetics theory-the past and the future. In Lessard, S. (Ed.), Mathematical and statistical developments of evolutionary theory (pp. 177-227). Springer, Dordrecht.
27. Gauger, A., Axe, D., & Luskin, C. (2012). Science and Human Origins. Seattle, WA: Discovery Institute Press.
28. Gliboff, S. (1999). Gregor Mendel and the laws of evolution. History of Science, 37(2), 217-235. https://doi.org/10.1177/007327539903700204

29. Greenland, S., Pearl, J., & Robins, J. M. (1999). Confounding and collapsibility in causal inference. Statistical science, 14(1), 29-46. https://doi.org/10.1214/ss/1009211805
30. Grigorenko, A. P., Borinskaya, S. A., Yankovsky, N. K., & Rogaev, E. I. (2009). Achievements and peculiarities in studies of ancient DNA and DNA from complicated forensic specimens. Acta Naturae, 1(3), 58-69. https://doi.org/10.32607/actanaturae.10766
31. Lewin, R. (1987). The unmasking of mitochondrial Eve. Science, 238(4823), 24-26. https://doi.org/10.1126/science.3116666
32. Monroe, J., Srikant, T., Carbonell-Bejerano, P., Becker, C., Lensink, M., Exposito-Alonso, M., ... & Weigel, D. (2022). Mutation bias reflects natural selection in Arabidopsis thaliana. Nature, 602, 101–105. https://doi.org/10.1038/s41586-021-04269-61-5
33. Poznik, G. D., Henn, B. M., Yee, M. C., Sliwerska, E., Euskirchen, G. M., Lin, A. A., ... & Bustamante, C. D. (2013). Sequencing Y chromosomes resolves discrepancy in time to common ancestor of males versus females. Science, 341(6145), 562-565. https://doi.org/10.1126/science.1237619
34. Pritchard, J. K., Seielstad, M. T., Perez-Lezaun, A., & Feldman, M. W. (1999). Population growth of human Y chromosomes: a study of Y chromosome microsatellites. Molecular biology and evolution, 16(12), 1791-1798. https://doi.org/10.1093/oxfordjournals.molbev.a026091
35. Sadler T.W. (2012), Langman's Medical Embryology,12th Edition, Lippincott Williams & Wilkins, a Wolters Kluwer business.
36. Takahata, N. (1993). Allelic genealogy and human evolution. Molecular biology and evolution, 10(1), 2-22. https://doi.org/10.1093/oxfordjournals.molbev.a039995
37. Thomson, R., Pritchard, J. K., Shen, P., Oefner, P. J., & Feldman, M. W. (2000). Recent common ancestry of human Y chromosomes: evidence from DNA sequence data. Proceedings of the National Academy of Sciences, 97(13), 7360-7365. https://doi.org/10.1073/pnas.97.13.7360
38. Wilson, A. C., & Cann, R. L. (1992). The recent African genesis of humans. Scientific American, 266(4), 68-75. https://doi.org/10.1038/scientificamerican0492-68
39. إبـراهيم، عـدنان. (2012, February 14). حواء:هل خلقت مـن ضـلع آدم؟ [Vedio]. YouTube. مـن Adnan Ibrahim: https://www.youtube.com/watch?v=Dijc7fiEcTc
40. إبـراهيم، عـدنان. (2022, January 8). حيـوان وزيـادة – ج 1 [Vedio]. YouTube. مـن Adnan Ibrahim: https://www.youtube.com/watch?v=zE2KBzm9h28
41. أبو النجا، محمود. (2019, December). حديث القرآن والسنة عن الحمض النووي في الأمشاج. من موقع إعجاز القرآن والسنة:
https://quran-m.com/%D8%AD%D8%AF%D9%8A%D8%AB-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D8%A2%D9%86-%D9%88-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%86%D8%A9-%D8%B9%D9%86-

%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%A7%D9%85%D8%B6-%D8%A7%D9%84%D9%86%D9%88%D9%88%D9%89-%D9%81%D9%89

42. جرار، بسام. (2017, September 24). كما انشأكم من ذرية قوم آخرين. [Vedio]. YouTube. من بسام جرار Basam garar: https://www.youtube.com/watch?v=TposI7gfFto

43. جرار، بسام. (2019, March 6). لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون. [Vedio]. YouTube. من دروس الشيخ بسام جرار: https://www.youtube.com/watch?v=YccAL5JJoxM

44. العوده، سلمان. (2014, August 23). برنامج آدم. [Vedio]. YouTube. من د. سلمان بن فهد العوده: https://www.youtube.com/watch?v=mo1iPUca5Dw

45. قنيبي، إياد. (2022a, January 20). الأبحاث العلمية وأغبياء بني آدم. [Vedio]. YouTube. من الدكتور إياد قنيبي – القناة الرسمية: https://www.youtube.com/watch?v=TN0RPfmmtfI

46. قنيبي، إياد. (2022b, January 22). سلسلة رحلة اليقين. [Vedio]. YouTube. من الدكتور إياد قنيبي – https://www.youtube.com/playlist?list=PL56IcDjrf3YJr__TEOJ2UOv3jCzht1_yc

47. موسوعة العيون المعرفية. (2012). سفر التكوين. من موسوعة العيون المعرفية: https://mandaeannetwork.com/Mandaean/bibel/1_altakween.htm

48. Beckman, M. (2000, November 1). The Eden Chronicles: Tracking 'Y Chromosome Adam'. Retrieved from Science: https://www.science.org/content/article/eden-chronicles-tracking-y-chromosome-adam

49. Human Genome Project. (2020, February 24). Retrieved from National Human Genome Institute: https://www.genome.gov/human-genome-project/Completion-FAQ

50. O'Neil, D. (2014). Biological Anthropology Tutorials. Retrieved from Behavioral Sciences Department, Palomar College, San Marcos, California: https://www2.palomar.edu/anthro/tutorials/biological.htm

51. Venema, D. (2014, March 13). Mitochondrial Eve and Y Chromosome Adam. Retrieved from biologos: https://biologos.org/series/evolution-basics/articles/mitochondrial-eve-and-y-chromosome-adam